

مقاربة سوسيو- تاريخية لمناقب الولي الصالح سليمان بن أبي سماعة

Socio-historical approach to the hagiography of the wali Suleiman ibn Abi

Samaha

أ.د. علي نابتي Pr. Ali Nabti	علم اجتماع	جامعة د. مولاي الطاهر بـ سعيدة (الجزائر)
ghanami_ali@yahoo.fr	الاتصال	

الإرسال: 2023 / 04 / 27 القبول: 2023 / 04 / 28 النشر: 2023 / 05 / 10

الملخص:

يُمثل الشيخ سليمان بن أبي سماعة (1461م / 1539م) الحلقة الأساس في العائلة البوبكرية الكبيرة في الجزائر. اشتهر، على درب أسلافه، بوصفه فقيهاً ماهراً في علوم الحديث النبوي وإماماً خطيباً. واصل الدعوة والتمكين للمذهب السني المالكي بالجنوب الغربي الجزائري الأعلى. أصبح في سنة 1506م مُقدِّماً للطريقة الراشدية الشاذلية بعد تلقيه التصوف من شيخه أحمد بن يوسف الراشدي، أحد أكبر المتصوفة بالمغرب الأوسط، وأبرز معارض سياسي عنيد للسلطنة الزيانية. يسعى المقال الآتي إلى إجراء مقاربة سوسيو-تاريخية لمناقب الولي سليمان بن أبي سماعة، في محاولة لاستيعاب سرد مسارات أسفاره من وجهة نظر «بيئته الداخلية»، دون إهمال إعادته إلى سياقه الاجتماعي والسياسي والثقافي، وكذلك إلى مآله عبر التاريخ. الكلمات المفتاحية: سليمان بن أبي سماعة؛ مناقب؛ تصوّف؛ الولي؛ الفقيه.

Abstract:

Sheikh Suleiman ibn Abi Samaha (1461-1539) represents the main link in Bubakriyah family in Algeria. He became famous, following the path of his ancestors, as an experienced jurist in the sciences of Hadith and an imam who preached and empowered the Maliki Sunni doctrine in the upper south-west of Algeria. In 1506, Suleiman ibn Abi Samaha became the precursor of the Rashidi Shadhili religious brotherhood after He was initiated into the ouird Sufi in the Ksar of Chellala Dahrana from his Sheikh Ahmed ibn Youssef al-Rashidi, one of the famous Mystics in the middle Maghreb, and the most prominent stubborn political opponent of the Zianyd Sultanate. The current article seeks to conduct a socio-historical approach to the hagiography of the Wali Suleiman ibn Abi Samaha, in an attempt to understand the narrative of his travels from the point of view of his "internal environment", without neglecting to return him to his social, political and cultural context, as well as to his fate throughout history.

Keywords: Suleiman ibn Abi Samaha; Manâqib; Sufism; Al-Wali; Al-Faqih.

مُقَدِّمَة

من الأهداف الرئيسية التي حققها المشروع الديني-الصوفي للبوبركية في الجنوب الغربي الجزائري بنجاح باهر خلال العصرين الوسيط والحديث، هدفين مُهمَّين هما: إحيال المذهب السني المالكي مكان المذهب الإباضي الذي كان عليه أهل قصور الجنوب الغربي الأعلى (Boubakeur, H, 1990, 11-12) بوجه خاص؛ ثم التمكين للتصوّف السني على سند أبي الحسن الشاذلي (غريب، م، 2000، 11-35). أمّا الهدف الأول فسعى في تحقيقه جدّهم ورئيسهم الأول مُعَمَّر بن سليمان المعراج أبي العالية (1330هـ-1420م)؛ وأمّا الهدف الثاني فأنجزه حفيده سليمان بن أبي سماعة (1461-1539م) بعد تلقيه الإجازة من شيخه أحمد بن يوسف الراشدي (حاج صادق، م، 1989، 76-103).

إنّ مواصلة الفقيه سليمان بن أبي سماعة الدعوة والتمكين للمذهب المالكي والدفاع عنه، وعنايته بتلقين التربية والسلوك الصوفي السني على السند الشاذلي، جعلاً منه واحداً من أبرز الشخصيات الإسلامية المؤثرة في التاريخ الاجتماعي-الديني، والسياسي للجنوب الغربي الجزائري. واللافت أنّ الحضور الدائم لشخصية سليمان بن أبي سماعة في الذاكرة المشتركة لقبائل الجنوب الغربي الجزائري، وتداول مناقبه في التجمعات الشعبية الجزائرية، يعود في المقام الأول إلى سمعته الشهيرة بصفته وليّاً صالحاً صاحب كرامات، وراقياً ممتازاً. ففي الوقت الذي ما يزال فيه مزار سيدي سليمان بن أبي سماعة، الواقع بالضاحية الغربية لبلدية بني ونيف (ولاية بشار)، محافظاً على استقطابه للزوار من فئات مختلفة من جزائر اليوم، طلباً للبركة والعلاج! فإنّ الملتقيات والندوات العلمية الجزائرية لم تتوصل إلى الإحاطة بشخصيته الفكرية في ظل ندرة آثاره الفقهية والصوفية، وبالتالي لم تبلغ مداخلتها فكر الرّجل، وظلت بدلاً من ذلك مُفرطة في مدح سيرته الذاتية، وحبسية استرداد السياق التاريخي العام الذي برز فيه أسلافه وذريته (نذكر على سبيل المثال: الملتقى الدولي السادس للطريقة الشيعية وأعلامها بالجزائر...: «سيدي سليمان بن أبي سماعة البوبركي نموذجاً»، تنظيم مؤسسة سيدي الشيخ وزاوية الشيخ سيدي الحاج بن بحوص بمتمليلي-ولاية غرداية، بالتنسيق مع جامعة غرداية، يومي: 16 و 17 نوفمبر 2022). والحال هذه، فإنّ بلوغ هذا

المأمول الدّرَاسي الجاد لا يتحقق إلا بالوصول إلى الكتب التي ألفها الشيخ، والتي لا يعرف عنها الجمهور العالم إلا صدى عناوينها.

ومنها: مخطوط في مسائل الفقه موسوم بـ «الأجوبة السماحية» ومخطوط موسوم بـ «حبس العقار»؛ أمّا المخطوط الموسوم بـ «شرح على مختصر الصغرى» للنساء والعوام، جاء ذكره في كتاب «البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان» (ابن مريم، ت، 1908، 314).

في السياق ذاته، نظم المجلس الشعبي البلدي لبلدية تيوت يوم 12 أكتوبر 2022م بقاعة المحاضرات للمركز الثقافي بغدادي بلقاسم بالعين الصفراء (ولاية النعامة)، ندوة تاريخية موسومة بـ «محاورة سيدي سليمان بن أبي سماعة مع علماء وادي ميزاب من خلال وثائق جديدة» جاءت «بالخبر اليقين» فأحرزت «قصب السبق» في إطلاع الجمهور على رسالة نادرة (1523م) في أربع صفحات من القطع الكبير اشتملت على ردّ سليمان بن أبي سماعة على جواب عبد الله بن الحاج سليمان المرزوقي في سياق المناظرات المذهبية بين فقهاء المالكية وفقهاء الإباضية، حيث حاول الفقيه سليمان ثني الفقيه المرزوقي عن اعتناق المذهب الإباضي.

وفي ظل هذا السبق، تتجلى أهمية هذه الرسالة بوصفها المصدر الوحيد، لحد الآن، الذي يُطلعنا على الأسلوب الثري للشيخ سليمان بن أبي سماعة الفقيه، وعلى مزاجه الفكري والعقدي وعلى مزاج عصره. نستطيع أن نقول بشأن استمرار المناظرات بين المالكية والإباضية إلى غاية زمان الفقيه سليمان بن أبي سماعة، بأنها تشي بوجود مشروعين ثقافيين مختلفين، تعمل كلّ طائفة عيهما على نشر نظامها المذهبي، وما يترتب عنه من تغييرات في المعايير والقيم الثقافية بالمنطقة.

في سياق متصل، تناولت الكتابات الفرنسية شخصية الوليّ سليمان بن أبي سماعة ضمن مقاربة مزدوجة، الأولى بوصفه فقيها عالما اشتهر بإحاطته بعلوم الحديث النبوي وبتأسيسه زاوية تعليمية والثانية، بوصفه وليّا صالحا أخذ سند التصوف الشاذلي عن شيخه أحمد بن يوسف الراشدي، أحد أشهر أئمة التصوف في الجزائر وفي المغرب الأقصى. واللافت أنّ الكتابات ذاتها لم تجد أثارا مخطوطة للاشتغال على فكر سليمان بن أبي سماعة غير الروايات الشفوية التي أخذها الباحثون من أفواه الرواة المحليين أو تلك التي

عثروا عليها مُقيّدة ضمن مخطوطات ورسائل عددها قليل جدًا. في المساق ذاته، شكّلت الروايات الشفوية المتعلقة بسليمان بن أبي سماعة وأبنائه وأحفاده، مصدرا إعلاميا مفضلا، قبل الفترة السابقة لسنة 1930م خاصة لدى الضباط الفرنسيين، والرحالة المستكشفين ولكثير من الكتاب الذين أنجزوا دراسات أحاديّة وتاريخية عن أولاد سيدي الشيخ، ومن أبرزهم العقيد تروملي-Trumlet، والراندرين-Rinn.

وفي سياق الرواية الشفوية، خلد الشعر الشعبي جوانب مهمّة من سيرة البوبكرية وملاحمهم الحربية، نذكر بهذا الصّدّد الشاعريّن: محمد بلخير، والشّلالى وغيرهما دون أن ننسى ذكر أهازج النساء (Bessaih, B, 1976, 11-105).

يلقي هذا المقال الضوء على مناقب، يندر فيها فكر الفقيه، وتتكاثر فيها كرامات وخوارق الوليّ. في السياق، نحاول فحص التصريحات والتلميحات المتعلّقة بمناقب الوليّ سليمان بن أبي سماعة في تعدّداتها وتنوّعها وتحولاتها.

أمّا بالنسبة للمنهجية العامة لتناول سيرته، فقد انفتح أماننا مسلكان منهجيان ومنظوران لا ينحصران على بعضهما بعضا، أولهما لم يكن الأسهل: التحليل البنيوي الذي، على الرّغم من الانتقادات العديدة التي وجهت إليه، يظل الطريقة المَلَكِيّة تقريبا لعلم الأساطير. لكنها تتطلب بالنسبة لنا، شرطا أساسيا غائيا ينبع من قناعة مؤسسها كلود ليفي شتراوس الذي يكتب: «تؤشّر كل مصفوفة من الدلالة إلى مصفوفة أخرى، كل أسطورة لأساطير أخرى. وإذا سألنا عن المعنى النهائي الذي تؤشّر إليه هذه الدلالات؟ والتي تعني بعضها بعضا، فإنّ الإجابة الوحيدة المقترحة، هي أنّ الأساطير تدل على الروح التي أعدتها عن طريق العالم الذي هو نفسه جزء منها.» (Levi- Strauss, C, 2009, 346). ومع ذلك، نود أن تسبق قراءتنا التاريخية لسيرة الوليّ تحليلها بوصفها وثيقة مناقب. حتى ذلك الحين، يمكن القول بأنّ القراءات التي تم إجراؤها قد أفرطت «باستمرارية»، بدافع البحث العنيد، في السيرة الذاتية. في السياق، نستثني ح. بوبكر (1912-1995) وخ. بن عمارة (1947-2022) برأينا، اللذان اجتهدا في الكشف عن المفارقات الزمانية والمكانية في السيرة البوبكرية.

يبرز سرد المناقب بوصفه خطابا أسطوريا-شعريا حيث تصدح الحقيقة في تصريحات المكاشفات المتتالية لحياة الوليّ والمصممة بوصفها مكانا متميّزا من مظاهر الإشارة. الخطاب

حول الوليّ هو نظام مُعترف به. من الطبيعي أن يجد فيه الأوفياء أسوة حسنة يقتدون بها
ويجد فيها مستشعرو الإرث الرمزي للوليّ وسيلة شرعية للحفاظ عليه.

نستهدف بإعمال مقاربة سوسيو-تاريخية الاشتغال على التساؤلات والملاحظات
والمقارنات النقدية التي جاءت في أهم مرجعين، تناولوا شخصية سليمان بن أبي سماعة
ضمن دراستهما لأعلام البوبكرية. حيث نسعى، قدر المتاح، إلى استيعاب سرد مسارات هذا
الوليّ من وجهة نظر «بيئته الداخلية»، ودون أن نغفل عن إعادته إلى سياقه الاجتماعي
والسياسي والثقافي، وكذلك إلى مآله عبر التاريخ.

المرجع الأول صدر باللغة الفرنسية من تأليف ح. بوبكر موسوم بـ «سيدي الشيخ صوفي
جزائري». تكمن أهمية هذا الكتاب إلى جانب صرامته الموضوعية، في اعتماد مؤلفه على أربع
مخطوطات، تحتل فيها سيرة ومناقب سيدي الشيخ الحيز الأكبر. مخطوطان مُعرّفان فقط
الأول موسوم بـ: «مناقب سيدي الشيخ وكراماته» من تأليف أحمد بن محمد الفجيجي في
عام 1056هـ/1646م، وسمه بالحرف (A). والثاني، مخطوط من تأليف أحمد بن محمد
الدلولي التواتي في عام 1907م، وسمه بالحرف (C). ومخطوطان دون اسم المؤلف ودون
تاريخ التأليف، وسم أولهما بالحرف (B) ويتناول حياة سيدي الشيخ؛ ووسم الثاني بالحرف
(D) خطه واضح ولكنه جد مختصر (Boubakeur, H, 1990, 8). أمّا المرجع الثاني، صدر
باللغة الفرنسية، ويتضمن ترجمة إلى اللغة العربية، موسوم بـ «سيرة البوبكرية (ج.1) من
سيدي مُعمر أبي العالية إلى أبناء سليمان بن أبي سماعة» من تأليف خ. بن عمارة، رصد
مؤلفه مجمل الروايات الشفوية التي قيدها الكتاب الفرنسيون عن الشيخ سليمان بن أبي
سماعة وأبنائه وأحفاده أولاد سيدي الشيخ على وجه الخصوص (-Benamara, K, 2002, 4).

(126).

أولا. سيرة أبناء وأحفاد سليمان بن أبي سماعة: توريث كاريزما خارقة

حسب المقاييس التي وضعها فيبر، يمكننا اعتبار الفقيه الوليّ سليمان بن أبي سماعة
أول قائد كاريزمي ملهم في المنطقة فالسلطة الكاريزمية «صفة خاصة لشخصية الفرد
وبفضلها يتميز عن أقرانه العاديين، حيث يُعامل على أنه يملك قوى فوق طبيعية أو فوق
إنسانية أو على الأقل قوى خاصة محدّدة أو صفات معينة ينظر إليها على أنها مقدّسة -

Divine أو قدوة وعلى أساسها، فإنّ الشخص المتمتع بها يُنظر إليه على أنّه قائد.» (بيومي، م، 2017، 361-362).

ضمن هذا الأفق المنظور سنحاول إسقاط المفهوم السوسيولوجي للمنزلة الاجتماعية لكشف السلوكات والعلاقات الاجتماعية التي أصبحت متفاعلة بين الوليّ وأهل البدو والحضر ضمن معاني جديدة، جاءت بها الصوفية النشيطة. فلقد ساهمت القدرة والكفاية الكرامية للولي سليمان بن أبي سماعة في وضع الحجر الأساس لبناء المنازل الصوفية المرابطية لبنية وحفدته فالكفاءات القداسية التي كان يحتاج إليها الناس في شتى أشكال حياتهم الاجتماعية والتي كانت كمية عرضها أقل من كمية الطلب عليها، مكّنت الشيخ سليمان وأبنائه من تبوأ المنازل العالية.

يحرص كتاب التراجم على تقييد مناقب الأولياء ومشجر نسبهم، وسلسلة سندهم الصوّفي ويحفظون كرامات الوليّ وكلماته وكذلك أخلاقه وفضائله. إذاً هي دوافع تأسيسية مباركة تبحث عن تشييد نصب تذكاري للإشادة بمناقب الوليّ. من حيث الوظيفة الظاهرة للمناقب، يبدو هذا التعليل منطقياً ومقبولاً. يردده جميع كتّاب المناقب بمجرد حاجتهم لشرح أسباب تفانيهم الشاق. ومع ذلك، إذا كان شرحهم بمثابة مدح وإشادة، فإنّ متون المناقب تسمح، من جانبها بقراءة خطاب آخر.

يؤكد كلّ من ح. بوبكر وخ. بن عمارة أنّ مناقب الوليّ سليمان، برزت في سياق تدوين سيرة ومناقب حفيده عبد القادر بن محمّد. أورث سليمان بركته لأبنائه الثلاثة: محمّد، صفية، أحمد المجذوب. بهذه الطريقة يبدو أنّ الأب كان منصفاً في توزيع بركته. غير أنّ حفيداً من أحفاده يُسمى عبد القادر بن محمّد الشهير بـ سيدي الشيخ، عرف كيف يُبني هذه البركة، ويشيد في ظلّها مجداً أدخل بنيه وحفدته التاريخ وكتبه. والحال هذه، سيكشف تثبيت المناقب «للميراث الروحي» للوليّ في لحظة معينة عن جزء من إستراتيجية «توريث الكاريزما» لصالح ورثته الروحيين. إنها تُعبر عن حركة مزدوجة، من خلال ما تقوم به «الجماعة العاطفية» (Weber, M, 1995, 471) من إعادة البنية حول تثبيت مؤسس جديد، من أجل ضمان النجاة والاستمرارية بعد وفاة الوليّ المؤسس، ومن خلال تحويل الكريزما الوراثية إلى رأسمال ثقافي. في سياق يتقاطع فيه حركتان لمأسسة انفصام افتتاحي:

أ) في «الجماعة العاطفية» بين «الحرس القديم» وكتلة الأتباع وكذلك كلّ أولئك الذين سيَدَعُون تمسكهم بتعاليم الوليّ دون أن يعرفوه مباشرة؛

ب) يُعزّز الانفصام في ذرية الوليّ، الزيادة في ريعهم الصّوفي المُستمد من شهرته المُتنامية بتزايد عدد المريدين والأتباع. وبالتالي، فإنّ تثبيت المناقب باعتبارها طريقة توريث لكرزما الوليّ الراحل، يُثير اهتمام الأحفاد إلى أعلى نقطة، بوصفهم القائمين على شؤون الجماعة العاطفية وبوصفهم مرشحين لشغل مناصب الولاية. لعلّه الأمر المُفسّر لحرص مناقب الأولياء على ذكر أسمائهم، والإشادة «بفضائلهم».

يُعزّز الانفصام في خَلْف الوليّ مكانة الفرع الفائز من خلال تفاقم استبعاد الفروع الأخرى. في حالة أولاد سيدي الشيخ، أدى نزاع الإخوة على أموال الزاوية خلال القرن 18م إلى تفرّق الإخوة إلى فرعين: الشراقة أولاد الحاج بوحفص والغرابة أولاد الحاج عبد الحاكم، اختار قائد هذا الفرع الأخير حسم التنازع باقتتال استمر إلى غاية 1765م.

انتهى الاقتتال بالاتفاق على تقسيم الأموال والعطايا والهبات على ثلاث حصص متساوية: حصة للزاوية الرئيسة الموروثة للبركة، حصة للزاوية الشرقية، حصة للزاوية الغربية (Rinn, L, 1884, 356-361).

ثانيا. مسار سوسيولوجي

تُنتج الخلفية الاجتماعية للوليّ خطابا سوسيولوجيا. حيث تكون حياته على طريقتيه الخاصة تُعبّر عن وعي الجماعة. لا يمكننا، في الواقع، من الصعب تصوّر حياة وليّ من خارج حياة الجماعة. هذا الوعي المُستمد منه، تُعبّر عنه الجماعة من خلال إشاراك شخصية رمزية بمكان مُصمّم بوصفه مركزاً. في مناقب البوبكرية، الشخصية هي الوليّ المؤسس للطريقة الدّينية ومكان ضريحه. إنّ الوجه الخفيّ، الذي يجعل من الوليّ سيّد جماعات غير متجانسة، بطبيعة الحال تُمحي تماماً من النّص، نجدها خارجه على الحدود الغامضة من الكلام. تلك الجماعات هي القبائل المانحة للمال والغذاء حتى تقوم الزوايا قياماً. يتفرع الولاء الروحي داخل القبيلة الواحدة إلى عدة تيارات طُرقية: شيخية، طيبية، قادرية.. الخ (Rinn, L, 1884, 362-368).

كفاح الكلمة المكتوبة ضد الكلمة المنطوقة في الخلاف الدائر على متون تراجم الأولياء، رهانه الأول هو الممتلكات الرّمزية، وليس أقلها الاستحواذ على رمزية الوليّ. وهكذا بالنسبة

لأولياء البوبكرية، الذين جاء جدّهم الأول مُعَمَّر أبي العالية من تونس لينتهي به الترحال بالجنوب الغربي الجزائري، حيث يصعب في البدو تحديد مكان وتاريخ ميلاد الصغار ويصعب معرفة تفاصيل طفولتهم، لأنهم ببساطة في زُحُل مستمر. يقترح الباحث ح. بوبكر، سليل قدور بن حمزة وسيدي الشيخ، تحديد مكان ولادة سليمان بن أبي سماعة على مشارف وادي القليّة قرب قصر ربا، أو باتجاه الشلالة الظهرانية حيث مرعى أغنام البوبكرية.

وكحلقة من هذا الكفاح الرمزي، يمكننا الاستدلال بقصة «المذاييح السبعة»، الأسطورة المتبناة من لدن عدد من الطُرق الدينية ومنها الطريقة الشيعية. اجتاز الأولياء السبعة اختبار الذبح بنجاح وكان سليمان أول الملبين لامتحان الشيخ ! (Boubakeur, H, 13-14, 1990) ما يترك الانطباع لدى القارئ أنّ الشيخ سليمان بن أبي سماعة كان من بين تلامذة الجيل الأول الذين أخذوا التصوف وأوراد الطريقة الراشدية عن شيخهم أحمد بن يوسف.

واللافت أنّ قصة «المذاييح السبعة» لا نجد لها ذكرا ولا حتى تلميحاً في مخطوط «بستان الأزهار...» في حين يعتبرها الحاج موسى الجزائري، مؤلف ترجمة متأخرة عن سيدي أحمد بن يوسف، أصلية في مخطوطه «ربح التجارة» ويبيد دهشته من عدم ذكر الصّبّاغ القلعي لها (حاج صادق، م، 1989، 91). من جهته، صَنَّف ج. بيرك الحادثة ضمن مؤلفات الأسطورة التي تتغذى عادة على الرواية الشفوية (بن عمارة، خ، 2000، 71). تكشف هذه الأمثلة بوضوح عن عمليات انتشار صوّر الوليّ حيث يكون النص مكانا لاختيار وتثبيت مرحلة.

في المساق، السرد المنقبي هو نموذج ثقافي يُعيد إنتاج المسار النبوي، إنها ليست مسألة بقاء ثقافة قديمة، عفا عنها الزمن بل هي مسألة اختيار مُتعمّد، داخل الدّعاية الصّوفية الإسلامية نفسها، والتي تتألف من إحياء الذاكرة النبوية واستلهاهم القصص القرآني، وإبلاغهما بالمحاكاة الرّمزية. هجرة النبي وأحزانه، وصبره على أذى قومه، خُلِّقه العظيم ومجاهدته؛ قصة النبي إبراهيم مع ابنه؛ تحكم النبي سليمان في الجن. الخ، تأليف يستجيب للحاجة إلى الحرية التي يتطلّحها عمل الخيال وتنظيم الكرامات والخوارق التي تقع على النقيض من عقلانية الفلاسفة وعقلانية الفقهاء المحافظين.

لذلك، اتضح أنه من الصَّعب التمييز بين الطبقات الاجتماعية بالنظر إلى أنَّ الصوفية وثقافتها بأكملها غالبا ما تعمل بطريقة فوق اجتماعية. لا يُعرَّف الزهد على أنَّه عدم استقرار اجتماعي يستحق التعاطف بل هو مدعاة لتزكية النَّفس والرَّغبة في معرفة الله والاقتراب منه. قيمة المناقب مهمّة في سرد سير الأولياء. الوليّ هو في الوقت نفسه المُنتج والمُنتج للثقافة الشعبية. بينما يوضح ثقافة وعقلية عصره، والتي يمكن الكشف عن آثارها في سرد مناقب سليمان بن أبي سماعة وأبنائه وأحفاده، ومع ذلك يحتفظ الوليّ بِسُفْتِهِ، ولاسيما الاستعداد النفسي، وأحيانا موقف اجتماعي يؤهله لوضع نفسه على طريق الولاية. في المساق ذاته، اهتمت المناقب بإلقاء ومضات على تجربة صوفية جمعت بين مرجع إقليمي أحمد بن يوسف الراشدي ومرجع جهوي سليمان السماحي. كما جاءت أسفار السَّماحي تجربة تقاطعت مساراتها بين الحقيقة والخيال، وتماوجت فيها الوقائعية والرمزيّة، وتضافرت فيها اللحظات التاريخية والإشارات الصوفية، كانت أسفار مفعمة بالمجاهدة والبركة.

تقودنا هذه القصة إلى الإشارة إلى التحوّلات التي شهدتها الفضاء الديني- الثقافي للجنوب الغربي الأعلى بعد استقبال الفقيه سليمان بن أبي سماعة لأحد أشهر الشخصيات الصوفية الجزائرية والمغاربية؛ ويتعلق الأمر بالوليّ الثائر سيدي أحمد بن يوسف الذي استنكر تخاذل الأمراء الزيانيين وركونهم للأسبان الذين احتلوا مدينة وهران (سعد الله، ب، ج1، 1998، 465).

يُعدّ الانتشار الواسع والمبكر للسند الصوّفي الشاذلي أهم إنجاز أسفر عن لقاء الشيخين. لقد أثر الشيخ أحمد تأثيرا بالغيا في الشيخ سليمان من حيث الموائمة بين ممارسة التصوف وتجديد الإصلاح الاجتماعي، وإقحام الصوفية في المعارضة السياسية للسلطة المارقة. والملاحظ أنَّ الكثافة الرمزيّة لقصة «المذابح السبعة»، تجعل النَّاس ينظرون إلى الوليّ سليمان بن أبي سماعة بوصفه حاصلا على إجازة عليا في التربية الصوفية من لدن الفقيه والوليّ الأكبر أحمد بن يوسف الراشدي دون أن تعطينا المناقب معلومات أوفى عن مواد التكوين الصوفي الذي تلقاه الشيخ سليمان من شيخه أحمد. سنحاول فيما يلي افتراض العوامل التي أدت بالشيخ أحمد بن يوسف إلى إجازة أو تزكية المريد سليمان بن أبي سماعة مُقدِّما للطريقة الراشدية الشاذلية على المستوى الجهوي:

- نسب الشيخ سليمان المتصل بالصحابي أبي بكر الصديق، وأخلاقه الدمثة التي أكسبته محبة وتوقير ساكنة الجنوب الغربي بربرهم وعربهم؛
- حيازة الشيخ سليمان على إجازات علمية من جامع القرويين ومن الأندلس، تُثبت مستواه الرفيع في العلوم الشرعية ولاسيما علم فقه الحديث؛
- سمعة ورصيد البوبكرية في الدعوة والتمكين للمذهب السني المالكي منذ جهود رئيسهم الأول مُعمر بن العالية؛

- تأثير السلطة الدينية للبوبكرية على قبائل الجهة.

لقد أثمر التأثير الصوفي الراسخ للوليّ أحمد بن يوسف في الجنوب الغربي، ومساعي تلامذته ومنهم سليمان بن أبي سماعة، انخراط البوبكرية وحلفائهم قبائل: الرزائية، أولاد زياد وعكرمة والكرامة، وجزءا كبيرا من قبائل حميان في الطريقة الراشدية الشاذلية. وفي الفترة ذاتها أسس الحاج بن عامر زوايا بين ربا والبيض، أما بالجنوب الشرقي المغربي برزت الزاوية الراشدية الشاذلية لمحمد بن عبد الرحمن السّهلي وبرز تلامذته: أحمد بن موسى الساورى مؤسس الطريقة الكرزائية الموساوية؛ عبد القادر بن محمد مؤسس الطريقة الشيعية؛ يحيى بن عبد الرحمان المشهور بابن صفية؛ الزاوية الزبانية إبان القرن 18م ومؤسسها أحمد بن أبي زيان القندوسي نسبة لقصر القنادسة (Boubakeur, H, 1990, 13).

ثالثا. قباب أولياء البوبكرية.. رمز السيادة الصّوفية ومعالَم الجغرافيا المقدّسة

تعبّر حياة الولي عن حركتين متعارضتين، كما لو كانت متقطعة في الزمن المناسب، على الأقل في المظهر. ولكن أيضا تُتيح العودة إلى الأصول إمكانية تكوين الجماعة لبُنية جديدة من خلال التطوير مخافة التشتت. وبالتالي، فإنّ ذاكرة الشيء (شيء يرتبط ببناءه باختفاء البدايات) يتم دمجها مع البناء الإنتاجي لصورة تهدف إلى حماية الجماعة من تشتتها. من هنا يكمن حرص البوبكرية على تشييد القباب على أضرحة أوليائهم والحرص على ترميمها، بالإضافة إلى تثبيت معالَم جغرافيتهم المقدّسة الممتدة الأطراف. «هكذا تتجلى لحظة من الجماعة المشتركة بين ما خسروه وما أبدعوه.» (De Certeau, M, 2002, 128).

في الفهم العام يبدو جليّا بأنّ المكانة الاجتماعية للأولياء دفعت بأحفادهم وأتباعهم إلى إبرازهم، وإعلائهم قبورهم لكيلا تضيع وتفقد وسط آلاف القبور. هذا التحليل منطقي

وسليم غير أنّ رؤيتنا للمسألة تفيد بأنّ تشييد القباب على أضرحة الصالحين جاءت كذلك للإبقاء على تواصل الأوفياء معهم، وما يعطوه هؤلاء عن طوعية من أموال وهبات، واستعدادهم للمشاركة في مختلف العمليات الاجتماعية والاقتصادية وحتى القتالية. جاءت واقعة تشييد القباب، وترميمها وتزيينها في إطار الإجابة عن سؤال جوهري، كان من أهم محاور أبحاث فيبر ألا وهو: ما العمل عند وفاة القائد صاحب الكريزما؟ يجيب بالقول: «يُعَيَّن لها فرد آخر وذلك بوسائل متنوعة، مثل التمتع بصفات معينة، فالقائد الجديد يُعَيَّن كخليفة من القائد الأصلي ويُختار من التلاميذ أو الورثة.» (بيومي، م، 2017، 363).

وبما أنّ الكاريزما بطبيعتها صفة استثنائية حيث لا يمكن تعليمها أو نقلها، فإنّ سلطتها تصبح مصدرا لصعوبات تتجلى في الكيفية التي تضمن استمرار التأثير والاستقطاب للجماهير. أعتقد أنّ الاعتناء والحرص على تشييد القباب له صلة بالتغلب على مثل هذه الصعوبات، من خلال البعد الرمزي القداسي الذي ارتبط بهذا النوع من المعمار. إنّ البركة بوصفها كرامة يتفرد بها الأولياء، وتأخذ أشكالا عديدة وتكون في حالات متنوعة، هي غاية المريدين، يفيدون بها ذواتهم وأملاكهم وحتى دوابهم ومحاصيلهم الزراعية، إنه مسعى للظفر باستجابة عرائضهم وإجراء مبادلة مع عطاياهم. يطلعنا رين - Rinn في كتابه الموسوم بـ «مرابطون وإخوان» عن الأهمية البالغة التي أولاها الحاج الدّين حفيد سيدي الشيخ، في بناء قباب على أضرحة أسلافه البارزين خلال النصف الثاني من القرن 18م (Rinn, L, 1884, 355).

وفي سياق متصل، قام الرائد كوفي-Cauvet بمعاناة مسحية للأشكال الهندسية لمعمار القباب في الجنوب الجزائري، وسلّط الضوء على اهتمام أولاد سيدي الشيخ، وأولاد ابنه سيدي التاج وفي طليعتهم سيدي بوعمامة، بتشيد القباب وترميمها، مع حرصهم على إضفاء اللّمسات الجمالية عليها وبإظهار طابعها الهندسي الخاص (Cauvet, G, 1923, 468-473).

على المستوى الرسمي، يستعير هذا التعريف لذكرى الوليّ، في كتب التراجم، نموذجة من روايات المُحدّثين التقليديين، الذين جمعوا أحاديث النبي بتصنيفها وفقا لمعايير خارجية تركز على توثيق سلسلة الضامنين أكثر من المذكور نفسه. في السّياق، سعى الوليّ

عبد القادر بن محمد بقصيدته الياقوت، عدد بيوتها 178 بيتاً، في تأثير المصادقة على طريقته الصوفية من خلال تسلسل عدة شيوخ، بدءاً من البيت رقم 119، بوصفهم ضامين لكل سند إلى أن ينتهي عند رسول الله عن الملك جبريل عن الملك إسرافيل. هذه طريقة اقتصادية لخفض فائض الكلام الموحش، غير المؤتلف من خلال تحديد الضامين.

يقول الولي عبد القادر بن محمد في الأبيات الأخيرة:

«وَسَمَّيْتُهَا الْيَاقُوتَ رَفَعًا لِقَدْرِهَا مَا تَسْلُسَلُ فِيهَا مِنْ شُيُخٍ عَدِيدَةٍ

مُعْرِفَةً لِّشَأْنِهِمْ وَطَرِيقَهُمْ وَأَسْمَاءَهُمْ ذَوِي الْأَحْوَالِ الشَّرِيفَةِ»

(Boubakeur, H, 1990, 117).

رابعا. بنية المناقب..

للسرد المناقب بنية خاصة. نحاول فيما يلي فهمها من خلال تحليل عدد معين من

«وظائفه»

أ/ البطل

تمر شخصية البطل من خلال المخطط السردى لمناقب مجردة من كل فردية. يتطور السرد تحت سمات، ومن خلال حلقات غير متجانسة مميزة «لنوع من الأولياء». إذا كان هناك شيء واحد لا يمكن قوله عن الولي فهو خارق، أي غير قابل للتصنيف، كما كان سقراط في نظر محاوريه. على العكس من ذلك، فهو قابل للتصنيف لدرجة أنه يشترك في سمات لا حصر لها مع أولياء آخرين، لدرجة أنه يتدرج في حلقات موحدة، تطور فيها أولياء آخرون قبله.

ليس الولي في المناقب المغاربة بطلا من تلقاء نفسه، موهوب بمؤهلات خاصة، فهو حامل لصفات تُرسخها مدونة السلوك والتربية الصوفية. والحال، فإن الولي عليه تجاوز شخصه الطبيعي الملموس، والاجتهاد في أن يكون أسوة حسنة فحسب، قيما أخلاقية تمشي على الأرض يتم تفعيلها وتنشيطها طالما أنها مهمة لنموذج اجتماعي مهيم، ويكثر عليه الطلب. لذلك، يتم محو جميع المعلومات في المناقب عن صورة الولي الخلقية تقريبا.

والحال، لا تذكر المناقب أي معلومة عن الأوصاف الخلقية لسيد سليمان بن أبي

سماعة عدا كنيته «أحمر اللحية» و«أحمر الشيب» (بن عمارة، خ، 2000، 81).

ولتوكيد صورة البطل الخارق، تُعطي المناقب للوليّ أصل نبيل، يمكن إلحاقه بأبي بكر الصّديق صاحب رسول الله وصهره، وأول خليفة في الإسلام. وبالتالي فإنّ انتخاب البطل وحمله لدعوته مصادق عليها بالدّم وبالكرامة الحاصلة من المجاهدة في التعبد. إذًا، الدّم والكرامة هما بنيتان يعادل كل منهما الآخر بقدر ما هما تعبير عن البركة الإلهية.

«أظهر بودواية سليمان، جدّ سيدي الشيخ من الشخصيات البارزة لخلف أبي بكر الصّديق، منذ شبابه استعدادات خاصة للدراسة والتصوف» (Boubakeur, H, 1990, 12). في السياق، تأتي الرواية الشفوية المتداولة في ربوات، الشلالة، عسلة، لتدعم هذه الاستعدادات من خلال سرد بطولي يكشف عن القوة التي يقهر بها الوليّ سليمان المسافة والزمن، ويمارس سلطة روحية على المجال منذ صباه.

«رعى سليمان الغنم في صباه، كان يقودها على مسافة تبعد عن قصر ربا بثلاثين أو ستين كيلومتر إلى مكان يسمى الخروج، يقفل راجعا في يومه. تعجب أهل ربا فأرسلوا معه مرافقًا، لم يجد هذا الأخير وقتا للرجوع بينما رجع سليمان وقطيعه كالعادة!» (بن عمارة، خ، 2000، 77).

لاحقا، سيُصبح التفوّق مسألة مثابرة لتكرار ما تم تقديمه بالفعل في البداية. يستمر السرد من خلال المكاشفات المتتالية لما هو فقط مظهر من مظاهر العلامة الرّمز. هذه المكاشفات المتتالية هي التي تبني الحبكة الدرامية لسرد مناقب الأولياء من خلال تقسيم فضاء السرد إلى فضاء روحي تعبدى حيث يتم اكتساب المهارات، وفضاء خوارقي حيث تجري تجارب التمجيد وحيث تتحقق العروض. إذ تتطابق بنية المخطط السردى لحياة الولي مع بنية الحكاية.

ب/ تعدّدت الأسماء والوليّ واحد..

في الغالب، يحمل الاسم أو التسمية دلالات ومعاني مختلفة لها ما يُبررها، إذ تتجلى وظيفتها الأولى في تكثيف رمزيات الحقل الاجتماعي والثقافي، من داخل أنساق سوسيو-تاريخية محدّدة تسعى لتحقيق استثمارات سياسية وأيديولوجية عديدة. ضمن هذه الغايات، تعدّدت أسماء الوليّ سليمان، فكان أشهرها اسم «السماحي» في إشارة إلى نسبته لأبيه أبي سماحة حيث أصبحت ذريته تُعرف بـ السماحيين، وهي التسمية التي أضحت تميّزهم عن باقي الفروع الكبيرة المتناسلة من الجدّ الأول مُعمر بن أبي العالية. ثم كنية

بودواية أي أبو دواية، وهو تصنيف لاسم الدّواة (دَوَايات): وهي المِخْبَرَة قَنِينَة زجاجيّة يوضع فيها الحبر، وتؤشّر هذه الكنية على مكانة سليمان الفقهية.

أما كنية بوداود فهي مستمدة من اسم الجبل الذي كان يأوي إليه للتعبّد في خلوته القريبة من عين بوداود. في السّياق ذاته يبرز اسم «الحمياني» ليؤشّر على عهد جديد في علاقة الوليّ بقبيلة حميان ثاني أكبر قبيلة رحلية بعد أبناء عمومتهم بني عامر التي كانت مُهيمنة على الجنوب الغربي الجزائري. القصة التي سنستعرضها لاحقاً، ملخصها أنّ: فرسان حميان هم من استرجع للوليّ إبله المنهوبة، وابتهاجا بصنيعهم قال للناس: «منذ الآن نادوني باسم: الحمياني».

ج/ مناقب

تهتم المناقب (ومفردها منقبة)، بوصفها خطاب «فضائل»، بسرد تراجم الأولياء وفضائل الفقهاء على السّواء أي مناقب الأولياء ومناقب الفقهاء. ضمن هذا الاهتمام، تمنح الفروق بين الحقول الدلاليّة لكلّ واحد منهما المكانة الدينية الخاصة به. في الواقع، إذا كانت «فضائل الفقهاء» تأخذ معنأ أخلاقياً، فإنّ «فضائل الأولياء» تتقاطع مع فئات «عجيبة». في هذه الحال تؤشّر على ممارسة القوة الخارقة التي يختزلها الأولياء في شكل عمليات مذهلة ومظاهر زاهدة.

في السياق ذاته، إذا كانت مناقب الفقهاء هي خطاب الأخلاق، فإنّ فضائل الأولياء هي بالأحرى خطاب ينسج رواية. لأنّه كلما زاد فهم الفضيلة على أنها مؤهل أخلاقي، تؤدي الكرامة دور تنظيم الاقتصاد الخطابي لمناقب الأولياء.

هذا لا يعني، مع ذلك، أنّ الفضيلة غائبة تماماً عنها. على العكس من ذلك، فإنّ حياة كلّ وليّ هي نوع من التفاضل الذي يجمع بين الفضائل والكرامات بطريقة معينة.

د/ أولياء البوبكرية وتمثلات مناقب الفضاء..

تتمفصل «كلمة» البدو عن أنفسهم حول شكلين من أشكال تنظيم الكلام: أسماء المواقع الجغرافية ورواية المناقب. ضمن هذا السياق، تتفاعل علاقات ساكنة الجنوب الغربي الجزائري مع الفضاء، مع المادة، مع أنفسهم ومع الآخر ومع العالم غير المرئي، عبر الكلام، وبشكل عام من خلال التمثلات على مستوى المخيال الاجتماعي.

يظل المخيال، من خلال اقتحام الإنتاج السوسيولوجي، الأنثروبولوجي والفلسفي، مفهوما ذو ملامح غير محدّدة جيّدا على الرّغم من الأعمال العديدة والشاملة. ومع ذلك، يبدو لنا أنّه لا يغطي ميدان التمثلات ولكنه جزء منه.

من بين تمثلات الفضاء في الجنوب الغربي الجزائري، احتفظنا بشكل أساس بتلك التي تُعبّر عن أسماء المواقع الجغرافية ومناقب الأولياء، على الرّغم من أنّه في حقيقة الميدان، عندما تعني المقدّس، فإنّ الأسماء الجغرافية ليست سوى التعبير النهائي عن الرواية. من ناحية أخرى كونه دائما تمثلا، فإنّه يعمل بوصفه رمزا؛ بمعنى آخر، إنّ تحديد مسبق لغياب، لحضور في هيئة مختلفة لواقعة، لكائن، لامرأة أو رجل توارى في الماضي.

على هذا النحو فإنّه يجعل من الممكن رؤية و/أو سماع الغياب، عن طريق استبدال كلمة تمثله أو علامة مادية. إذاً هي مناسبة أو وسيلة لكلمة تُعيد إنتاج الغائب في وضع آخر. سيكون بعد ذلك تمثلا للتمثل: يقول الاسم الجغرافي، في اللغة، الخلوة أو القبة التي تُمثل الوليّ المؤسس الذي توفي في وقت غير محدّد. كلما ذكر أهل المنطقة وليّا، تحضر صورة قبته في أذهانهم!

ومع ذلك، فإنّ التمثلات مطلوبة بشكل عام للدلالة على التعيين أيضا. بالإضافة إلى وظيفته الروحانية فإنّ الاسم الجغرافي، مثل الرمز، له معنى فقط إذا كان مرتبطا بنظام أسماء الأعلام الذي هو جزء منه. ومهما كانت المعاجم غنية، لا تقول شيئا سوى المعنى اللغوي الدقيق الذي يمنح لها الاصطلاح. وبرجوعها إلى كلمة المجتمع، يتم توزيعها وفق ترتيب الدلالة التي تبنيه كلمة «اجتماعي-مخيال» حول نفسها: «أولئك الذين يبحثون عن معنى الرموز ينظرون إلى مصدر الضياء ويشكون من العمى؛ ومع ذلك، ليس الضياء هو الذي يجب النظر إليه ولكن ما يُنير» (Perber, D, 1997).

كما حدث في أيّ مكان آخر، حشدت عمليات رسم الأقاليم، التي نُقّدت على مدار قرون، الوسائل السياسية والعسكرية. ومع ذلك فإنّ إضفاء الشرعية على الاستيلاء على الفضاء يتم تأسيسه على أساس «كلمة» تجعل العنف السياسي والحربي نسبيا، وفي الوقت نفسه، تفسح المجال للعنف الرّمزي بضمان احتكار إنتاج المقدّس.

لا توجد روايات مكانية حصرياً، مثلما أنّ فضاء السرد ليس سوى وهم من المختصين في سيميائيات الأدب. تتعلق رواية المناقب بالفضاء فحسب بطريقة عرضية. على سبيل المثال

رسم الإقليم الأول لجغرافيا سليمان بن أبي سماحة هو تأثير السرد حيث يتم التعبير عنه من خلال الاسم الطبوغرافي (ثنية الزيارة) والاسم البشري (جبل بوداود/عين بوداود). إنها السلطة الروحية لأسياد الرباط التي تسمح، من خلال تثبيت المواقع المقدسة، حيث يستحوذ المعنى بشكل نهائي على مخارج قصور الواحات المحصنة. ولخط الإقليم وتقييد معاملة يجب الاشتغال، أولاً، على الحركة الأخوية المتبادلة لدى البدو والحضر على حد سواء.

وضع الولي سليمان أولى العلامات من الجنوب الغربي الجزائري والهضاب العليا إلى إقليم فجيج بالجنوب الشرقي المغربي ثم جاء من بعده حفيده عبد القادر بن محمد/سيدي الشيخ ليكثف من العلامات ويعمل على توسيع الإقليم من مراكش إلى الجزائر العاصمة، ومن ساحل البحر المتوسط إلى ما وراء العرق الغربي. اكتسحت جغرافيته المقدسة المكان والإنسان بامتياز.

توثق الروايات الشفوية ومناقب الأولياء عقوداً اجتماعية بين الطريقة الدينية والحضر بلغتين مختلفتين (العربية المغاربية والعربية الفصحى). تعبر الفئات الفضائية، إذًا، عن العناصر الأولى لعلم الجبال وعلم المياه، وحدود الأقاليم بينما يتم تثبيت الأقسام الجغرافية الرئيسة الأولى. تخرع الروايات المصطلحات الأولى لعلم شكل الأرض وتطوره والتي يؤكدتها التقديس.

ثم يؤسس السيد الولي الإقليم الاسمي عن طريق كسر احتكار المعنى الذي يحمله القصر وتمكين عالم البدو من الاستحواذ على المقدس. تُحدّد الخلوات ومواقع زاويته فضاءً اسمياً مخصصاً لاستقبال المجتمع الذي أسسه. هذه العلامات الجديدة هي الرموز الأولى والرئيسة التي سيتم نسج الإطار الأساسي لأسماء المواقع الجغرافية حولها.

لا يحيل المعجم الدلالي على علمي الجبال والمياه فحسب بل يمتد إلى نباتات الصحراء وحيواناتها. يفتح الخدام الأوائل للسيد سلسلة من الروايات الأصلية والطقوس التي ترسم حدود الفضاء الاسمي للمواقع المقدسة. تُقام مسالك مسار الزيارة في مسيرات تحليلية تُشكّل بؤرة المعنى وعقد الاحترام.

ثم تصبح التحليلات البنائية الأولى للروايات ممكنة والتي يتم من خلالها إنشاء انقلابات متناظرة بين تفكيك الإقليم وإعادة تشكيله، في الخضم، يتحوّل فضاء الطرد إلى فضاء

سامي يعود المريدون والزوار إلى مركزه باستمرار. تُفسر هذه التحوّلات في بعض أجزائها بأسباب «جيو - سياسية» أدت إلى تعديل التوازنات الإقليمية والسياسية التي ساهم مجيء «شيوخ المعنى» من خط نسب صوفي مُرابطي في إعادة تشكيلها انطلاقاً من مؤسسة الزاوية التي بناها الشيخ سليمان بن أبي سماعة بالصّالحين، على الضاحية الغربية لقصر بني ونيّف إلى تأسيس سيدي الشيخ للطريقة الشيخية، فتعدّد الزوايا الشيخية بعده.

الكتابة المناقبية هي في الآن ذاته تشكيل أماكن مشتركة ووسم أماكن فارغة. حيث تفسح المجال لقراءة حياة الوليّ من خلال مناقب الفضاء بوصفها سلسلة تنقلات من مكان إلى آخر، بعضها شهير ولامع، وبعضها أقل شهرة. في المساق، شهدت بعض الأمكنة تكتشفاً لمؤهلات الوليّ وبعضها الآخر شهد تمجيده. في حين يُشكّل بعضها فضاء انطلاق الاختبار، والبعض الآخر يحظى فيه بالفتوحات الربانية.

مثلما رأينا آنفاً، تستمد بنية سرد المناقب دلالتها من ترتيب الفضاء الذي يتحرك فيه الوليّ عبر مسارات مختلفة. هو ذا الوضع الذي تنص عليه المدونة المنقبية. إنّ حياة الوليّ تنقسم بين المغادرة إلى مكان والعودة إلى مكان آخر، غالباً ما يكون مكان المغادرة. غير أنّ الوليّ سليمان بن أبي سماعة لم يعدّ إلى مكان المغادرة، ولكن حفيده عاد إليه، دُفن في تربته ببلدة الأبيض سيدي الشيخ.

نحاول تلخيص أهم مسارات سفر الوليّ سيدي سليمان بن أبي سماعة برجوعنا إلى مؤلّفَي: «سيدي الشيخ صوفي جزائري» (Boubakeur, H, 1990, 12-16) و«سيرة البوبكرية» (بن عمارة، خ، 2000، 74-84) كما يلي:

- من الشلالة الظهرانية إلى فجيج.. مسار التعليم التقليدي:

تروي المخطوطات مسيرة الفقيه الوليّ سليمان بن أبي سماعة، في طلب العلم مُبتدئاً بالمدارس التي كان يُشرف عليها الشرفاء الأدارسة بكلّ من مدرسة قصر الشلالة الظهرانية، ومدرسة قصر الأوداغير بإقليم فيجيج حيث أخذ العلم من الشيخ عبد الجبار البرزوزي الفجيجي.

- من القرويين بفاس إلى غرناطة بالأندلس، مسار التخصص العلمي وتعميق المعارف:

زار العديد من مدن شمال افريقية ثم سافر إلى المغرب الأقصى لتعميق دراسته في جامع القرويين ثم قصد غرناطة لأكثر استزادة. غادر الأندلس تزامنا مع سقوط آخر مملكتها سنة 1492م. عاد إلى مدينة فاس حيث أصبح مُدرسا بجامع القرويين مدة سبع سنوات.

- الشلالة الظهرانية، بني ونيف وفجيج، مسار التدريس وإثبات الكفاءة في علوم الحديث:

وفقا للمناقب ذاتها، قفل راجعا إلى الشلالة الظهرانية بعد وفاة أبيه، التحق بالتدريس بمدرستها، وبها كان يتعبد بمحاذاة الجدار الخارجي للقصر. تردد بانتظام على قصور فجيج التي تبعد حوالي 150 كلم عن المنطقة باتجاه الجنوب لإثبات كفاءته العلمية.

- فضاء الامتحانات المؤهلة:

سافر سليمان إلى غرب الجزائر قاصدا قرية بني راشد (نواحي ولاية معسكر) لأخذ التصوف عن أحمد بن يوسف شيخ الطريقة الراشدية في زاويته برأس الماء. بعد حين، استقبل سليمان بن أبي سماعة رئيس البوكرية الشيخ الأكبر أحمد بن يوسف بقصر الشلالة الظهرانية. وكان مرافقا له في مختلف تنقلاته بالمنطقة: الشلالة الظهرانية، قصور فجيج، قصر بني ونيف، قصر تيوت، مخيمات قبيلة حميان. لم تخلو هذه الأسفار من الأنشطة العلمية والجلسات الصوفية وكذلك التوعية السياسية التي كان يُشرف عليها «اللاجئ السياسي» الشيخ أحمد بن يوسف.

- فضاء امتحانات التألق الصوفي:

أسس الولي سليمان زاويته بالمكان المسمى الصالحين بالضاحية الغربية لقصر بني ونيف، شرع في برنامجه التعليمي ونشاطه الصوفي. عزز مكانته الاجتماعية ورأس ماله الاجتماعي والثقافي بمصاهرته أشرف الأدارسة بالشلالة الظهرانية وبفجيج (عائلة عبد الجبار بيت علم وشرف). اعترف بقداسته ومكانته الفقهية بعض فقهاء فجيج. ذاع صيته بعد كراماته المتتالية، فبدأ العوام يترددون على زيارته طلبا للبركة والشفاء، وطلبا للطعام والإيواء، وبدأت الكيانات الاجتماعية المتخاصمة تطلب تحكيمه، وإصلاح ذات البين.. الخ

- بالضحاحية الغربية لقصر بني ونيف: ضريحه، وزاويته:

في هذا المسار، يفتح الوليّ فضاءً جديداً ليس لا هنا اجتماعي ولا في مكان آخر. إنه فضاء آخر يتحقق فيه الاتصال والتواصل مع الإلهي. تدشين هذا الفضاء الروحي يفتح بوصفه فضاء الآخر بامتياز. لأن التجربة الصوفية كاستبطان جذري وكتجاوز للذات تضع العالم بوصفه محدداً. الآن على وجه التحديد، إذا كانت التجربة الصوفية تُعرف أكثر من أي شيء آخر حدود الكائن في العالم، فهي تُعرف أيضاً كيفية كسر عالم الهوية المغلق للإنسان عن طريق حقن الغيرية الراديكالية فيه. أمّا كتابة المناقب بوصفها تشييداً وإشادةً، فإنها تتكشف كطريق للوصول إلى هذا المكان-الحقيقة الذي هو فضاء تكريس طقوس الزيارة.

هـ/ زمن منقبي

في هذه الكتابة الطبوغرافية، يتم سحق الزمن تحت وطأة الفضاء. وعندما يُحرّر نفسه فإنه يظهر هناك بوصفه زمناً عائماً. لا تذكر الروايات تواريخ الأحداث، غير أنها تُركّز على البطل وفضاء بطولاته. تسود في مدونة المناقب توضيحات الأماكن على توضيحات الزمن. سواء كان الزمن عائماً أو نائماً، يتم تصميمه بطريقة مكانية. لأنه على وجه التحديد الفضاء وليس الزمن الذي يُشَيّد مسارات المناقب. هنا يكمن الفرق الأساسي بين المناقب والسيرة الذاتية.

رابعاً. نسج الرواية بوصفها «تحقيق للشفاء»

خطاب المناقب هو خطاب نسج الرواية يغلب عليه في جميع مساراته «المذهل والعُجاب». لأنّ الكرامات، بطبيعة الحال، هي أنموذجه البنائي. أكثر من أي شخصية مذهلة أخرى، الكرامة المُغذية هي مصدر مُهمّ في كتابة المناقب المغاربية. مناقب البوبكرية ليست استثناءً. سلطة رمزية-خطابية ذات حمولة قوية من الاستحضار والاقتراح الحسي، تعمل بوصفها تباهي وتماهي مع ماضي مُغذٍ لانتماء وولاء الجماعة للوليّ المؤسس.

يوجد في مسارات سرد المناقب شخصية تعمل على التجنيد بالتأثير من حيث أنها تُوفر، في نظام اجتماعي-مُغذي من الاقتصاد القسري، إمكانيات شديدة للرضا عن هذه الأُماني. لكن هي شخصية تجنيد للتشييد. على هذا النحو يبقى قبل كلّ شيء مكافئاً رمزياً للروعة الحقيقية التي من المفترض أن يكون الوليّ حاملها. باختصار، إنّه الدليل الحسي على كرامة الوليّ.

لذلك تُظهر المناقب الوليّ سليمان بن أبي سماعة بوصفه مُعالجا بالرقية الشرعية يمنح، في نفس الوقت، قوت القلوب وراحة الأبدان. يضعها بشكل جيّد في أدوار اجتماعية أخرى، مثل دور رجل الصّالح. نستطيع القول بأنّه في الوقت الذي برزت فيه شخصية سليمان الأستاذ الفهامة في فقه علوم الحديث، بدأت بالموازاة شهرة سليمان الوليّ صاحب الكرامات والبركات تملأ دنيا الجنوب الغربي الجزائري وباقي الأمصار!

«منذ هذه الفترة، بدأ المرضى يتوافدون على مخيمات سيدي سليمان أو خلواته. تعدّدت زياراتهم له عند استقراره في فيجيج. (...) يمكن التأكيد على أنّ جلساته العلاجية كانت عبارة عن رقية شرعية مستمدة من آيات القرآن ومن السنة.» (بن عمارة، خ، 2000، 75)

سعى الحكيم سليمان إلى تخليص المرضى من أوجاعهم ومدهم بالبركة. ضمن هذا المسعى يبلغ النص المنقبي مستوى إنتاج التأثيرات المشيدة. عندما لا يُريح الوليّ المريض أو المريضة من الأوجاع، تراه يجلب الراحة للجسد النرجسي من جروحه الرمزية، وأكثر هذه الجروح مخافة هي: العقم وتعطلّ الجسم عن إنجاب الذكور. ذاكرة قبائل الجنوب الغربي الجزائري والجنوب الشرقي المغربي حافلة بالعديد من الروايات العلاجية المتضافرة للقضاء على الأوجاع والحرمان.

أوضحنا سلفاً أهمية أنثروبولوجيا بنيات المخيال (Durand, G, 2016) في مؤازرة وتوسيع فهمنا للتاريخ المغربي شريطة التناول الجديّ للآثار الأدبية المكوّنة لمادته الأولى. حيث يُعدّ الشعر تابعا لبنية مناقب الأولياء، ووظيفته مركّبة في تنظيم خطابها.

وبالرغم من هذا الاستحواذ فإنّ الوظيفة الشعرية لا تطغى باستمرار على الوظائف الألسنية الأخرى، فتنوّع الرسائل لا يكمن في احتكار هذه الوظيفة أو تلك، ولكن في الاختلاف التراتبي بينها. لهذا لا يمكننا على سبيل المثال إهمال الوظيفة المرجعية المُساهمة بقوة في الخطاب المنقبي الجزائري. تلك هي حُجتنا للتدخل في نقاش هو في قلب كتابة التاريخ والأنثروبولوجيا في هذا البلد: مكانة الأولياء في الحقول الدينية.

خامسا. الوليّ سليمان بن أبي سماعة «رابع الظالمين»

كان الجنوب الغربي الجزائري خلال القرن 15م واقعا تحت سيطرة قبيلة بني عامر الهلالية بوصفها قوة عددية هائلة شكّلت الجيش المساند للأمراء بني زيان في حربهم مع

جيرانهم بني مرين بالمغرب الأقصى. كانت الرقيب على حركة قوافل التبادل التجاري مع واحات توات وقصورها. لقد امتدت هيمنة بني عامر إلى غاية قصور تاغيت المحاذية لوادي زوزفانة (جنوب ولاية بشار) والأراضي المتاخمة لوادي قير. تشهد حكايا وملاحم حربية وأسماء أماكن وأطلال بنايات وآبار ومقابر على هذا الحضور العامري الذي لازال راسخا في الذاكرة المحلية. يُوثقه نُتف من عقود البيع لعيون الماء وأراضي الفلاحة التي أبرمها العامريون غداة مغادرتهم للناحية (بن عمارة، خ، 2000، 66-67).

لم يخلو الفضاء الذي كان يجوبه السماحيون من تحرشات النّهابين، ومن ذلك سرقة مدخراتهم من الحبوب وقطّانهم من الماشية. وحيال تعنت وبغي بعض كبراء بني عامر على الأولياء «المستضعفين»، كان السّلاح الفعّال لهؤلاء هو التضرع إلى الله بالدعاء طلبا للنصرة والانتقام من القوم الظالمين. نورد دعاء الوليّ سليمان بالشر على بلزرق العامري أحد ناهبيه.

في يوم عيد الأضحى؛ استولى بلزرق على ماشية سيدي سليمان التي كانت ترعى في ناحية بني ونيف/فجيج. وفي الوقت الذي ابتعد فيه السارق بغنيمة، نداه الوليّ مُحذرا: " من أشعل النار تحرقه". غير أنّ بلزرق لم يكتثر به. حينها رفع سيدي سليمان أكف الضراعة قائلا: " الله يهكك في هكة، هكة وحوش في العطاف؛ ويدكك دكة في دكة، دكة خزين لا ينشاف، ويحكك حكة في حكة، حكة مقلية بين الكفاف". فجأة برز فرسان من حميان، قدموا من خيامهم بـ تافيلالت. لاحقوا النّهابين، أدركوهم فكان بلزرق من المقتولين قرب شجيرة حلفاء. تجمع الفرسان على جثته، وبينما أضرم أحدهم النار في كومة حلفاء، انفطت منها شعلة، فتعلقت بالجثة فأحرقها. وما إن أقبل فرسان حميان على سيدي سليمان حتى صاح قائلا: " حسبت رجال الله هم رجال الله، وإذ برجال الله هم حميان".

وإشادة بهذه الاستجارة، أضاف اسم "الحمياني" إلى مصنف أسماءه وكنياته. ورد اسم الحمياني ضمن عقود الحبوس بزوايته بـ بني ونيف. « (بن عمارة، خ، 2000، 77)

تأتي هذه الواقعة لتكشف عن حكمة ودهاء الوليّ سليمان بن أبي سماحة الذي عرف كيف يستثمر لحظة إقبال فرسان حميان عليه واسترجاع إبله المنهوبة. فأول ما قام به هو منح قبيلة حميان الزغبية الهلالية «ترقية فخرية» فأحلهم مقام أولياء الله ثم أعلن التحامه بهم فأصبح «حمياني» بالجلف.

لقد توصل بهذا الإجراء الذكي إلى ربح حلفاء أقوياء، يضمنون له حماية أملاكه، ويدعمونه في تحقيق مشاريعه. لم يقتصر دور قبيلة حميان على توفير الأمن للوليّ ولأملاكه مقابل الاستفادة من كراماته المتنوعة فحسب، بل راحوا يساهمون في تنمية ثروة زاويته بـ بني ونيف بمنحه أموال الزيارة المنتظمة والهبات أثناء رحلتهم الموسمية إلى واحات توات وقورارة.

هناك روايات أخرى تشيد بتألق الوليّ سليمان وانتصاره على جبابرة بني عامر. ولكن هذه المرة بتدخل الجن في الصراع بين الفضيلة والإساءة.

تروي الأسطورة أنّ سيدي سليمان كان في الصحراء فاعترض طريقه عدوه الحاج، رئيس بني عامر، فاستدعى الجن فابتلعتهم» (بن عمار، خ، 2000، 76).

تعكس بوضوح مغادرة بني عامر، القبيلة الشديدة البأس، نحو تسالة (ولاية سيدي بلعباس)، العملية التي كانت تجري في الجنوب الغربي وبالمغرب بشكل أوسع والمتمثلة في تجزئة الكيانات القبلية والصعود القوي للعائلات المرابطية. لقد برز الأولياء أصحاب كرامات، وتمكنوا من سد الفراغ الأمني الذي خلفه رحيل بني عامر، وشدوا سلطتهم المرابطية باستمالة قبيلة حميان، ثاب أكبر قوة مُنتشرة بالبوادي الغربية للمنطقة.

لم يكن البوبكريون القائم الحصري الوحيد على الحركة المرابطية المتنامية في الجهة بل كان للإشراف التعليمي الذي قام به الشرفاء الأدارسة وغيرهم من الفروع الشريفة بالغ الأثر في دعم وإسناد المد الصوفي المرابطي. والحال، لم تكن الطريقة الشاذلية وحدها في الفضاء الصوفي السني بالجنوب الغربي بل وفد وليّ من أصول شريفة له باع في العلوم الدينية يتعلق الأمر بـ: محمد بن الحسين بن شعيب المشهور في الجهة بسيدي بودخيل/بوتخيل جاء إلى قصر ربا معقل البوبكرية قادما إليه من ناحية زمورة (بين تيارت وغيليزان) ليؤسس فرعاً للزاوية القادرية حوالي سنة 1515م.

6. الوليّ والسياسي

يضع المخيال المغاربي في المشهد، العشرات من روايات مناقب الأولياء، تروي جوانب منها الصراعات بين سادة المعنى والملوك. من الواضح أنّ رهان هذه المناقب هو الأسبقية والانفصال في مؤسسة العيش معاً في المغرب. سلطان فاس يطرد سليمان بن أبي سماحة بعدما رأى السلطة الروحية التي أصبح يتمتع بها في الإدارة الرمزية للمدينة. أوشكت كراماته

أن تجعله المرجع الوحيد للمجتمع وتحويل المَلِك إلى مُحترَم بسيط. رَفَضَ السِّيَاسِي الخضوع إلى الديني: ليظل السلطان المرجع الوحيد والنهائي بينما يتم إخراج الولي إلى الهوامش البدوية العvisية حيث يتولى هو نفسه تكتلها في المدينة.

يخرج سليمان من مدينة فاس، فتتحرك المدينة لتتبعه، وكأنه هو أولى بها من المَلِك. لحظة أسطورية فارقة تُجسد انتصار البركة على السلطان! يتنازل الولي بعد أن مهد الطريق لإدارة المدينة بالرمز. يتم إنهاء الصراع دائما بنفس الطريقة: الولي يستسلم وينفصل.

الأرض الموعودة ممكنة فقط على حساب الانفصال. لكن أرض الميعاد هي هدف دائم. إنه الدِّين ذاته: الدِّين يعني الورع وضبط النفس، الانفصال، الهجرة (Derrida, J, 1996). هنا يكمن التخريب السياسي المطلق الذي تعنيه الولاية. تصبح الولاية سلبية السياسة. إنها تُؤسس لسلطة جديدة مغايرة قوامها القوة الكرامية، والتي لا يمكن أن تكشف إلا عن جوهرها الأساس من خلال الانفصال. هذه المدن كلّها في تداخل مزدوج بين الدِّيني والسياسي.

طلب السلطان من التلامذة أداء صلاة الاستسقاء « (...) حينئذ لم تكن حاجة لأدائها لأنّ الغيث نزل قبل خروجهم. أدرك سيدي سليمان الامتحان الذي أراد أن يفرضه عليه السلطان. وعندما خرج إلى السهل، وجد صخرة عظيمة تعيق السبيل. ركلها فتطايرت جذاذا. تعجب السلطان، وتوجس منه خيفة في الوقت ذاته. شخص يمثل هذه القدرة يستطيع أن يُسبب له متاعب. ترجاه لمغادرة فاس من باب الفتوح. لكنه أدرك على الفور أنّ المدينة نفسها كانت تتحرك لإتباعه. ولما لم تكن هذه نيته، أمرها بالتوقف، فأطاعته ولكن مع بدء الحركة بالفعل احتفظت بوضعيتها المائلة. كما تبدو عليه في وقتنا الحاضر.» (بن عمارة، خ، 2000، 78-79).

تؤشر هذه الأسطورة على ثلاثة نماذج صريحة: التحدي، المناظرة الخطابية، الإنذار. في الواقع، تطبع هذه النماذج غالبية المناقب المغاربة، من خلال تكريس لكرامات تمتد عبر مسارات السرد.

بالتالي، الولي موازنه ثقيلة، تسعفه لإنتاج نشاط بطولي مُتنوع، كثيرا ما يجعل منه صاحب «فضيلة فاعلة» تختلف نوعيا عن الفضيلة العادية، تجعل من حياة الولي «قدوة مؤثرة»، موضوعية، لصيقة به في حياته وتُحييه عند وفاته، بتقييده في الذاكرة، تجعله جديرا بالذكرى. أليس المعنى أو المغزى من كُتب المناقب هو خدمة هذا التذكّر؟

على أية حال، لم تلق الضوء على أي مسألة فكرية أو فقهية مرتبطة بالممارسة الصوفية بل احتفت بالكرامات التي استطاع عبرها سليمان السماحي الحمياني أن يرتقي إلى مرتبة شيخ شيوخ التربية الصوفية في المنطقة. ضمن هذا المقام السامي، تحدث أحمد بن نعوم في أطروحته (Ben

(Naoum, A, 1993) عن مشروع الإصلاح الديني الذي قاده البوبكرية بدءً بالجدّ الأول مُعَمَّر أبي العالية ووصولاً إلى كلِّ من سليمان السماحي، وحفيده الشيخ عبد القادر بن محمّد، واصفاً إياها بحركة «غزو المعنى - conquête du sens»، التي أحدثت انفتاحاً تدريجياً لفضاء أشرفت عليه سلالة صوفية مرابطية.

من المناقب إلى الدعاية، لا توجد سوى خطوة واحدة. هذه الضرورة التعليمية تُرهق النص بهذه الخوارق، بحثاً عن تدبيج القصص. فالمَلِك هو حقيقة الآخر بالنسبة للوليّ الذي أعرض عنه. وكأنّ الوليّ هو هذا «اللاشيء تقريباً»، غير أنه يُذكر المَلِك بأنه بالرغم من جبروته وقوته هو «لاشيء».

نخلُص إيضاحاً، إنّ هذه التفاصيل وهذه الاستطرادات، والتي لا أحد يحاكم حشوها المُفَرط، ليس لها غاية لها سوى نسخ مناقب متضاربة، خاوية من التدقيق التاريخي، فياضة عندما يتعلق الأمر بسرد الكرامات والخوارق. أمّا وراء تعدد وتغاير الوقائع، فهي تُحيل على تفرّع مفاهيمي ثنائي، أساسي بفصل الفضيلة على الإساءة.

يمكن القول، إنّ كلّ ما اتصف بالأهمية الجوهرية لمناقب سليمان بن أبي سماعة وأبناءه وأحفاده، كان هدفه الرئيس توضيح حياة هؤلاء الأولياء المرابطون بأكبر قدر ممكن، في بيئة بدوية، وفي لحظة حاسمة في تاريخ المغرب الإسلامي.

*- خاتمة

لا نعرف إلا القليل عن المؤلفات الفقهية والصّوفية للسماحيين. هل يرجع ذلك إلى طبيعة حياتهم البدوية الدائمة الترحال في فضاء مُصنّف ضمن بلاد السبّية (الفوضى) بامتياز؟ إقليم مُضطرب لم يسعف أولياء الزاوية البدوية المتنقلة على تأليف المزيد من الكتب. يبدو أنهم كانوا منشغلين بالدعوة والتمكين للمذهب السني المالكي، وليس أدل على ذلك مناظراتهم مع فقهاء الإباضية! في الآن ذاته، لم يغفلوا عن التعبد المضني بخلواتهم العديدة! ولم يتخلفوا لا عن تدريس التلامذة، ولا عن تلقين التصوف للمريدين! ولم يتأخروا عن نداء إصلاح ذات البين، ورَدِّع الظالمين! وكانوا يجدون الوقت لعلاج المرضى بالرقية الشرعية!

يبدو أنّ السماحيين قد أوجدوا لأنفسهم هامشاً كبيراً من المناورة وعرفوا كيفية تجسيد وتفعيل النماذج الثقافية المعترف بها من قبل المجتمع وفي صدارتها الثقافة الشعبية. كما ذكرنا أنفاً، لم يكتفي الشيخ سليمان باستقبال العامة لعلاجهم بالرقية بل خصّهم بتأليف «شرح على مختصر الصغرى».

اللافت إصراف غالبية نصوص سيرة الأولياء السّماحين ومناقهم في «المدح الأسطوري» على حساب التدقيق التاريخي. هذا الإفراط لا يسعف الدراسة السوسيو-تاريخية والأنثروبولوجية للإحاطة بالممارسات الواقعية للأولياء والإلمام بمختلف علاقاتهم الاجتماعية الفعلية في ارتباطاتها المتداخلة مع وقائع التاريخ المضطرب للجنوب الغربي الجزائري. على أية حال، ما لم نلتزم الصّمت ونتخلّى عن الكتابة فمن المناسب استغلال المصادر المتاحة.

إنّ مناقب كرامات الأولياء، التي تتغذى عادة على الرّواية الشفوية بوصفها أهم مصدر خبري دُفاق هي ضرورية للتاريخ، كما أنّ تشابكها معه هو الذي يجعل من الممكن إلقاء الضوء على حقبة من التاريخ الثقافي للجنوب الغربي الجزائري لا تزال غير معروفة في تفاصيلها النفسية- الاجتماعية والدينية- السياسية.

هل يمكننا اعتبار كلّ من مؤلفات سليمان بن أبي سماعة وعبد القادر بن محمّد وأحفاده الحاج بوحفص وابن الدّين مفقودة عمليا؟ يؤكد ح. بوبكر حيازة بعض العائلات البوشيخية على وجه الخصوص على عدد من هذه المؤلفات. وفي انتظار الإفراج عنها ستظل ثلة من الباحثين تواقّة لبلوغ جوهرها الثمين خدمة للمعرفة وللبحث العلمي، وستسّود محاولاتهم على الفشل أو الغموض.

المراجع باللغة العربية

- ابن مريم، م. ب. أ. التلمساني. (1908). البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان. مراجعة: محمد ابن أبي شنب. الجزائر: المطبعة الثعالبية.
- بن عمارة، خ. (2000). سيرة البوبكرية (1)، تر: محمد قندوسي. وهران، الجزائر: مكتبة جودي مسعودي.
- بيومي، محمّد. (2017). علم الاجتماع الديني. القاهرة، مصر: دار المعرفة الجامعية.
- حاج صادق، محمّد. (1989). مليانة وولها سيدي أحمد بن يوسف. الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب.
- غريب، مأمون. (2000). أبو الحسن الشاذلي: حياته، تصوّفه، تلاميذه. القاهرة، مصر: دار غريب للطباعة والنشر.
- سعد الله، أ.ق. (1998). تاريخ الجزائر الثقافي ج.1. بيروت، لبنان: دار الغرب الإسلامي.
- الملتقيات والندوات

-الملتقى الدولي السادس للطريقة الشيخية وأعلامها بالجزائر. (يومي، 16 و 17 نوفمبر 2022). «سيدي سليمان بن أبي سماعة البوبكري نموذجاً»، غرداية، الجزائر: تنظيم مؤسسة سيدي الشيخ وزاوية الشيخ سيدي الحاج بن بحوص بمتليلي، بالتنسيق مع جامعة غرداية.

- الندوة التاريخية الموسومة بـ«محاورة سيدي سليمان بن أبي سماعة مع علماء وادي ميزاب من خلال وثائق جديدة». (يوم 12 أكتوبر 2022). العين الصفراء، ولاية النعامة، الجزائر: تنظيم المجلس الشعبي البلدي لبلدية تيتوت، قاعة المحاضرات للمركز الثقافي بغداي بلقاسم بالعين الصفراء.

المراجع باللغة الإفرنجية

- Benamara, K. (2002). La Saga des Boubekria (1) de S. Maamar Abou l'Alia aux enfants de S. Slimane ben Bousmaha : S. Mohammed — Lalla Sfia - S. Ahmed El Mejdoub. Oran : Librairie DJOUDI Messaoud.
- Ben Naoum, A. (1993). Uled Sidi Esh Sheykh: essai sur les représentations hagiographiques de l'espace au sud-ouest de l'Algérie, Thèse de doctorat d'Etat es lettres et sciences humaines : Université de Provence- centre d'Aix.
- Boubakeur, H. (1990). Un Soufi algérien SIDI CHEIKH, Tome 1. Paris : Éditions Maisonneuve et Larose.
- Bessaih, B. (1976). Etendard interdit. Paris : Sindbad.
- Cauvet, G. (1923). réédition (1985/ 1986). Les Marabouts. Petits monuments funéraires et votifs du Nord de l'Afrique. In OPU (Ed.), Revue Africaine n° 64: (pp: 448-522). Alger.
- Derrida, J. et al. (1996). La religion. Paris : Edition du Seuil.
- De Certeau, M. (2002). L'écriture de l'histoire. Paris: Gallimard.
- Durand, G. (2016). Les Structures anthropologiques de l'imaginaire. Paris : Dunod.
- Levi- Strauss, C. (2009). Le Cru et le Cuit. Paris: Plon.
- Perber, D. (1997). Le symbolisme en général. Paris : Hermann.
- Rinn, L. (1884). Marabouts et Khouans. Alger: Adolphe Jourdan, Libraire-Éditeur.
- Weber, M. (1995). Economie et société. Paris: Pocket.